الصبر على الشدائد

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام
الأستاذ بكلية الآداب

كل امرئ يبغى الخير لنفسه ويتطلع إلى مكانة علية فى حياته . ولكن الناس مختلفون فى التصدى للعظائم وتوطيد النفس على محاولتها وملاقاة المكاره فى سبيلها واحتمال المصاعب دونها . أكبرهم نفسا أعظمهم همة وأبعدهم غاية وأكثرهم اعتزازا بنفسه وتوكلا على الله وأصبرهم على الشدائد . والنجاح فى هذه الحياة لمن طلب فدأب ، وعركته الحوادث فثبت ، وجاهد فصبر ، والله مع الصابرين .

الشدائد محك الأفراد والجماعات والأمم ، تمتحن إيمانها وكبرياءها وإباءها وعزتها فيستبين كيف يصدق الفعلُ القول ، ويؤيد الباطنُ الظاهر ، وينصر الخُبر الخَبر . يستبين الصادق والكاذب ، والهلوع والصبور ، والجودُ والزيف ، حين تذيب نار الشدائد غش الظواهر وتكشف المحن عن حقائق الأقوال .

إذا تزاحم الأفراد فالفائز أثبتهم على الزحام ، وإذا تغالبت الجماعات فالظفر لأصبرها على المشقات وأرسخها على الزعازع وأشدها إباء على الخنوع ونفورا من المذلة وأعظمها إيمانا بالله وثقة بأنفسها وجلدا فى مصادمة الأهوال .

ما الصبر على الشدائد ؟ إيمان بالله يثبت النفوس فلا تزلزلها الحوادث ، وثقة بالنفس تعصمها من أن تفزع من الكوارث ، وكبرياء تأبى لها أن تتقهقر ، وعزة تربأ بها أن تخضع . فترى الأبىّ الصابر ماضيا لخطوب ، يمشى إلى غايته قدما كما تسير الكواكب فى أفلاكها إلى غاياتها ، وكأنه قانون من قوانين الله فى خليقته تؤدى مقدماته إلى نتائجها ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

يظل كالطود يجرى حوله نهر ... من الخطوب له فى الناس طغيان
يزل عن سفحه التيار مصطخبا ... وما يلين لمر الماء صوّان

لكل غاية سبل تؤدى نحوها ، وكثير من السبل وعر شاق ، وكثير منها مخوف تكتنفه الأهوال ، ولكن لابد لمن رام الغاية أن يسلك سبيلها ، ويتعرض لمخاوفها ، ويصابر شدائدها . لا بد لهذه النتيجة من هذه المقدمات ، فمن دأب وصبر فقد استوفى المقدمات وهى منتهية إلى النتيجة لا محالة ، وقد سلك السبيل وهو لا ريب بالغ الغاية .

الحياة محن ، ولكل محنة فى النفوس الكبيرة والأمم العظيمة عدتها من الايمان والجهاد والصبر ، وهى العدة التى لا تثبت لها محنة ولا يستعصى عليها خطب ، من آمن بحقه وجاهد له وصبر عليه ، شق إلى مقصده الأهوال وذلل الصعاب وبلغ غايته والخطوب صاغرة والدهر ذليل ، وتكشفت عنه الغمة بساما وضاحا مطمئنا كما ينصلت السيف من غمده أو كما يخرج الكوكب من غياهب السحاب ، ثم يخرج من محنته أعظم إيمانا ، وأشد إباء وأوفر كرامة وأقوى نفسا وأصلب عودا بما شدت المحن من قواه ، وأثارت من مواهبه ، وعرفته من أخلاقه ، وبينت من فضائله .

استمع إلى الشاعر العربى الأبى :

فإن تكن الأيام فينا تبدلت ... بنعمى وبؤسى والحوادث تفعل
فما لينت منا قناة صليبة ... ولا ذللتنا للذى ليس يجمل
ولكن رحلناها نفوسا كريمة ... تحمل ما لا يستطاع فتحمل
وقينا بحسن الصبر منا نفوسنا ... فصحت لنا الأعراض والناس هزل

وقد رأى شاعرنا المتنبى أن الصبر كفء لحوادث الدهر ، وأنه عدة لا تغلب وناصر لا يخذل فقال :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر ... وحيدا ، وما قولى كذا ومعى الصبر
تمرست بالآفات حتى تركتها ... تقول : أمات الموت أم ذعر الذعر؟
وأقدمت إقدام الأتى كأن لى ... سوى مهجتى أو كان لى عندها وتر

والتاريخ يشهد أن الظفر لمن صبر ، وأن الغلب لمن ثبته إيمانه ، وقدمه عزمه ، وطمأنه جلده ، وحاطه صبره فاستقر والأرض ترجف بخطوبها ، واطمأن والصدور تضيق بقلوبها .

فإن تكن الدولات قسما فإنها ... لمن ورد الموت الزؤام تدول
لمن هون الدنيا على النفس ساعة ... وللبيض فى هام الكماة صليل

ألم تر إلى محمد رسول الله وأصحابه كيف غلبت قلتهم الكثرة ، وضعفهم القوة ، وفقرهم الغنى ، وإنما غلبوا بالايمان والصبر وهما جند الله ينصر بهما من يشاء ؟ صبروا على السخرية والعذاب ثلاث عشرة سنة لا يزدادون فيها إلا ثقة بالنصر وجلدا على النوائب وصبرا للأحداث ، ثم ثبتوا للقاتلين فانجلت عنهم الوقائع وقد أخرجوا باليقين والصبر من بين السيوف والحتوف دولة عز بها الحق فى مشارق الأرض ومغاربها .

وكان القرآن يوصيهم بالصبر ، ويعلمهم أن العاقبة للصابرين ، ويضرب لهم الأمثال بما أصاب الصابرين قبلهم من العذاب ، وما أصابوا هم من الظفر والعزة والسعادة .

ويقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل". "واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون". "ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين" .

لابد من المحنة التى تبين الصادق من الكاذب ، والطيب من الخبيث: "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين" .

وبيّن القرآن جزاء الصابرين وعاقبتهم فقال " ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " .

وقال " وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون " جعلهم أئمة للناس هداة لهم قادة بما آمنوا وصبروا ، وقال : "أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون" .

لا أعرف أن القرآن أوصى بخلق إيصاءه بالصبر ، ولا وكد الدعوة إلى فضيلة توكيده الدعوة إليه .

وقد اهتدى المسلمون بقرآنهم فى كثير من اللزبات فعصمهم الصبر أن يجزعوا أو يملوا أو ييأسوا أو يجبنوا عن لقاء الخطوب أو يذلوا فى قراع المصائب أو يحسبوا حدثا من أحداث الليالى أكبر من عزائمهم وأعظم من شجاعتهم وأثبت من إيمانهم وأرسخ من عزتهم ، فصابروا الخطوب حتى ظفروا ، وصبروا على ظلمات المحن حتى تبلج صبح النصر . كان المسلمون فى السلم والحرب صابرين واثقين بما بعد الشدة من الرخاء ، وما بعد الضيق من السعة ، وما مع العسر من اليسر . وكذلك ينبغى أن يكون المؤمن المحتسب ، ينبغى أن يكون شجاعا لا يفرق ، مجاهدا لا يكل ، مقداما لا ينكص ، عزيزا لا يذل ، راجيا لا ييأس .

المؤمن يؤدّى واجبه فى الشدة والرخاء والنعماء والضراء ، لاتبطره النعمة ولاتذله الحاجة.

"ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير" .

شر ما يصاب به الانسان فى حياته اليأس ، وإنما يعصمه من اليأس الصبر . فالصبر آخر الرجاء ، والرجاء سبيل الظفر والداعى إليه والموحى به . ومن الناس من تذهب

بصبره الصدمة الأولى فتطير نفسه شعاعا ، ويأس ويسلمه اليأس إلى الخيبة والهلاك . وعسى أن يكون الظفر قريبا منه ، والنجاح ميسورا لو صبر ساعة واحدة .

ومن الناس من تزيدهم الشدة كبرياء ، ويزيدهم الجهاد رجاء ، كلما اشتد الخطب ارتقبوا انجلاءه ، وكلما أطبقت الظلمات رأوا من ورائها نور الفجر ، يرون بسمة الرجاء فى عبوس الخطوب ، وروح الفرج فى ضيق الكروب . يقول القرآن الكريم . "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء" .

وقد حدثنى الثقة عن السيد أحمد الشريف السنوسى رحمه الله أنه حارب أعداءه مرة فهزم وتفرق أنصاره وضاقت بالهزيمة أنفسهم وساءت ظنونهم فقال رحمه الله : "هذا والله حين أوقن بالنصر" . فخلق صبره وإيمانه وطمأنينته واستهزؤه بالهزيمة واستكباره عليها وإباؤه أن يعترف للعدو بالانتصار — خلق هذا فى أنفس أنصاره الرجاء والاقدام والصبر ، فردوا الهزيمة على عدوهم ومحقوه فى موقعة هى كبرى المواقع فى جهاد طرابلس أو من كبرياتها . وكذلكم النفوس الأبية تخلق أحيانا قوانين الحياة . ورحم الله الشاعر إقبال الذى يقول : "إن عزائم الأحرار تشير على القضاء والقدر" . وقد جعل القرآن الكريم الصبر فى الحرب تسعة أمثال العدد إذ قال فى سورة الأنفال ، السورة التى ذكرت فيها غزوة بدر : "يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون" — فكان على المسلمين أن يثبتوا لعشرة أمثالهم ولا يعتذروا بقلتهم ، ثم خفف عنهم هذا التكليف فكان على الواحد منهم أن يقاتل اثنين : "الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله ، والله مع الصابرين" .

الشدائد تهذب الأفراد والأمم ، وتشيع بينهم التآلف والتعاون ، وتشد عزائمهم وتقوى أجسامهم وأخلاقهم إذا صحبها الصبر الذى يهيئ النفوس ويجمعها لهذا الدرس ، وإذا جزعت النفوس من الشدة وهنت ولم تزدها المحن إلا ضعفا . الرجل الحر يلقى الشدائد باسما راضيا صابرا ، واثقا بالعاقبة الحسنى ، مؤديا واجبه ، باذلا من نفسه وماله لأمته ، معينا إخوانه على البأساء ، قطبا تدور عليه الحادثات وهو ثابت ، وتعركه الخطوب وهو راسخ .

ورحم الله الرافعى الذى يقول :

فلا تتساءل أى جنبيك واقع . إذا اشتبكت يوما حوادثها النكر
ولكن تلق الدهر غير مفزع بصدرك ولتعرا الخطوب كما تعرو
وكن رجلا كالضرس يرسو مكانه ليطحن لا يعنيه حلو ولا مر
فإن تغلب الأبطال فى كل وقعة فما عرفت حرب بها غلب الصبر

عبد الوهاب عزام